الفاعل الحقيقى

- كل الدلائل تؤكد: فاروق هو الذى دبر حريق القاهرة !
- مفارقات القدر.
  - فى يوم السبت ٢٦ يناير دبر الحريق لإخراج الوفد !
  - وفى يوم السبت ٢٦ يوليو خرج هو من مصر !
- لماذا طلب رئيس الديوان إغلاق ملف الحريق ؟
- محمد حيدر يتدخل لدى النيابة ويمنع معاقبة العسكريين الذين شاركوا فى المظاهرات.
- سر كراهية الملك فاروق للوفد.

سوف يبقى يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ فى تاريخ مصر يوما من أهم أيامها، ففى هذا اليوم بدأت مرحلة اللا استقرار الرهيبة التى عاشتها مصر. وهى التى مهدت نفوس المصريين لاستقبال حركة الجيش فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ استقبالاً طبيعياً.

وعلى رغم أننى منذ توليت وزارة الداخلية يوم الاثنين ٢٨ يناير ٥٢ قد حاولت جهدى - عن طريق الأجهزة التى كانت موجودة بالطبع - معرفة من هو الفاعل، فإن كل المحاولات التى جرت لم تستطع أن تقبض على يد محددة توجه إليها الاتهام..

مع ذلك، وقبل أن أنتهى من هذا الفصل الخاص بحريق القاهرة وأغلق ملف أوراقى فإننى وعلى رغم مرور كل السنوات التى مضت لا أستطيع أن أغفل عددًا من الملاحظات الهامة التى أصبحت تدعم وتؤكد يقينى بأن فاروق نفسه.. ملك مصر هو الذى كان وراء هذا الحريق.. وإذا كان التعبير القانونى الشهير «من ظاهر الأوراق» هو الذى يجعل القضاة فى بعض القضايا يصدرون حكمهم.. فإننى أستطيع أن أقول إنه كانت هناك إلى جانب «من ظاهر الأوراق» التى تشير إلى اتهام فاروق، ما هو أكثر، بل إلى حد استخدام «من باطن الأوراق» لا من ظاهرها..

لقد كان لافتاً للنظر بل وللدهشة أن يشترك ضابط من الجيش وهو محمد على عبد الخالق ومعه جنود السوارى اشتراكاً علنياً واضحاً فى المظاهرات التى قامت صباح السبت ٢٦ يناير ٥٢ كرد فعل لأحداث الإسماعيلية فى اليوم السابق، وهى التى أوضحت فى الفصول السابقة كيف بدأت باشتراك جنود بلوك النظام.

لم تكن هذه المظاهرات مقصورة فقط على البوليس والطلبة وفئات الشعب المختلفة التى انضمت إليها، وإنما كان الغريب أن يشترك فيها ضابط جيش وجنود جيش. ولم يكن من المعقول أن يجرؤ هذا الضابط وهؤلاء الجنود على السير فى هذه المظاهرات وحدهم دون أن يكون لديهم ضوء أخضر يسمح لهم بذلك. لأن الترجمة الواقعية لاشتراك ضابط عسكرى

فى مظاهرات تمرد من قوات مسلحة هى قوات بلوكات النظام تعنى أمراً خطيرًا، وعقوبتها صارمة جدًا.

فهل يمكن تصور أن هؤلاء الضباط والجنود لم يقدروا مغبة وعاقبة ما أقدموا عليه؟

الجيش يطلب محاكمتهم

لم يكن اشتراك الضابط محمد عبد الخالق سرًا، فقد تم تصويره وهو محمول على الأعناق فى المظاهرات.. وعقوبة مثل هذا التصرف صارمة جدًا كما قلت، لكن الغريب أننا بعد أن قبضنا على محمد عبد الخالق وعلى جنود السوارى الذين عرفنا شخصياتهم من الصور الفوتوغرافية وأحلناهم إلى النيابة، فإن قيادة الجيش وعلى رأسها الفريق محمد حيدر تدخلت لدى النيابة وطلبت تسليم هؤلاء العسكريين إلى سلطات الجيش لتتولى محاكمتهم بمعرفتها عسكرياً. وتم تسليمهم بالفعل إلى الجيش.

ولكن، وكما عرفت وتأكدت فإن أحدًا منهم لم يعاقب.. لا الضابط ولا أحد من الجنود.. فمن الذى كان يمكن أن يحميهم ويوفر لهم الأمان فى ذلك الوقت غير القصر؟

السلطانة ملك تحذر فاروق !

غير ذلك أذكر حادثتين لهما دلالتهما.

أما الأولى فهى أننى شخصيًا سمعت أن السلطانة ملك (زوجة السلطان حسين وكان فاروق يعتبرها بمثابة أمه ويستشيرها فى الكثير من الأمور) . أقول سمعت أن السلطانة ملك أزعجها ما حدث فى الإسماعيلية بين الإنجليز والبوليس يوم الجمعة ٢٥ يناير، وأنها اتصلت بالملك فاروق تسأله تفاصيل الحادث. وعندما عرفت السلطانة ملك بما حدث من فاروق أوضحت له بخبرة السيدة المحنكة أن هذا حادث خطير يعرض البلد إلى منزلق خطير. وكان رد فاروق كما عرفت أنه يوافقها على انزعاجها، ولكن «لابد من إيصال البلد إلى أخطر منزلق حتى يمكن إصلاحه بعد ذلك» ..!

أغلق ملف حريق القاهرة !

ذلك حادث سمعته

لكن الحادث الثانى عشته..

فذات يوم – وأنا فى الوزارة – اتصل بى الدكتور حافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى فى ذلك الوقت وقال: إنه يود رؤيتى.

وقابلته. وما إن صافحته وجلست حتى قال ضاحكًا وغليونه فى فمه: أنت تاعب نفسك كثيرا فى موضوع حريق القاهرة ليه؟

قلت: وما وجه العجب فى ذلك.. وهل هناك ما هو أخطر من هذا الحادث؟

قال حافظ عفيفى: هذا موضوع انتهى وفات. والبلد أمامه مسائل كثيرة أخرى تستحق الاهتمام أكثر من حريق القاهرة.

قال حافظ عفيفى دون أن يتركنى أتحدث: إن كثيرين من موظفى وزارة الداخلية لا يزالون خائفين من أن تحملهم المسئولية وقد بلغنا أنك عاقبت بعضهم بتهمة التقصير فى كشف الفاعل وهذا يكفى. إننى أرجو أن تغلق ملف حريق القاهرة. وهذا رجاء أقوله لك يا أستاذ مرتضى وأنت حر فيما تقرره.

قلت له: حافظ باشا.. هل هذا رأى شخصى أو رأى جلالة الملك قال بابتسامة لا تغيب عن فطنة من يحدثه: لا تنس يا أستاذ مرتضى أننى رئيس ديوانه! وخرجت من عند رئيس الديوان الملكى وأنا أفهم بالطبع معنى الرسالة.. وكنت قد عاقبت بالفعل بعض رجال الأمن الذين ثبت عليهم من تحقيقات النيابة التى جرت تهمة الإهمال فى القيام بواجبهم.

ومع أننى ترددت كثيرًا قبل توقيع العقوبة على أساس أنهم كانوا تحت ظروف قاسية يصعب عليهم فيها القيام بشىء يوقف الدمار لأن موجته كانت أعلى من قاماتهم، إلا أننى وقعت هذه العقوبات ضمانًا للمستقبل وحتى لا يقصر من تقع عليهم المسئولية إتكالا على أنهم سيكونون بمنجاة من العقاب.

كلها تشير إلى فاروق !

واليوم عندما أجمع القصاصات المتباعدة:

●● حديث فاروق إلى السلطانة ملك وإشارته إليها بضرورة أن يتعرض البلد لشىء خطير جدًا حتى يمكن إنقاذه.

●● وليمة فاروق المفاجئة التى أقامها يوم السبت ٢٦ يناير ظهرًا ووجه إليها الدعوة يوم الجمعة قبلها بيوم واحد وهو مايخرج على كل تقاليد.

●● الأشخاص المدعوون لهذه الوليمة والذين يمكن وصفهم بأنهم المسئولون فى الجيش والبوليس عن أمن مصر والقاهرة على وجه الخصوص.

●● استبعاد وزيرى الداخلية والحربية من هذه الوليمة وعدم توجيه الدعوة إليهما مع أن المفروض أن يكونا موجودين!

●● اشتراك بعض ضباط الجيش والجنود فى المظاهرات التى جرت يوم ٢٦ يناير مما عكس اتحاد الجيش والبوليس لأول مرة فى مظاهرة مع الشعب.

●● عدم معاقبة هؤلاء الجنود فيما بعد بمعرفة قيادة الجيش رغم المدلول الخطير الذى يعكسه تصرفهم.

●● كلام رئيس الديوان الملكى ورسالته غير المباشرة لى من فاروق بأن أغلق ملف التحقيق فى حريق القاهرة ولا أجهد نفسى فى البحث عن جناته..

كل هذه القصاصات ماذا تعنى غير أن فاروق كان نفسه وراء هذا الحريق.

●● رجاء وزير الداخلية الملح لقائد الجيش بنزول الجيش للسيطرة على الموقف، وتأخر تنفيذ هذا الرجاء ثلاث ساعات كاملة، ثم تمييع الموقف بعد نزول الجيش بحيث ظهر عندما نزل أنه شريك ومؤيد لما يجرى، ولم يطلق رصاصة واحدة على سبيل التهديد إلا فى الحادية عشرة مساء وبعد أن تم الخراب والدمار.

●● تمسك قيادة الجيش بأن يكون لها وحدها حق سؤال هؤلاء الجنود وعدم فرض أية عقوبة على أحد منهم على رغم المدلول الخطير الذى يعكسه تصرفهم.

●● محاولات أجهزة المباحث اتهام أحمد حسين والحزب الاشتراكى بأنه العقل المدبر والمنفذ، وهى محاولة كان واضحًا منها التخلص من خصم عنيد لفاروق ولحزب الوفد الحاكم فى وقت واحد.

❑❑❑

كل هذه القصاصات المتناثرة عندما أجمعها اليوم فماذا تعنى غير أن فاروق كان نفسه وراء هذا الحريق الذى دبره للتخلص من حكومة الوفد، ونجح بالفعل فى التخلص من حكم الوفد، لكنه فى الوقت نفسه وضع اللغم الموقوت تحت عرشه الذى تم نسفه يوم ٢٣ يوليو من نفس العام، ثم تكمل المقادير أحداثها فيأتى خروجه من مصر فى يوم السبت ٢٦ يوليو..

ويوم السبت ٢٦ يناير كان حريق القاهرة.

ويوم السبت ٢٦ يوليو من نفس العام كان خروجه من مصر.

هل كان يدرى؟

هل كان يعرف ماذا تعد له المقادير التى ظن أنه هو الذى كان يخطط لها؟

ثم لماذا أراد التخلص من الوفد ووصل تفكيره إلى هذه الدرجة الشيطانية؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال لابد – وأنا أغلق ملف حريق القاهرة – أن أشير إلى منشور سرى تم ضبطه بعد الحريق كان يوزع داخل القوات المسلحة.

وربما كان أهم ما يعكسه هذا المنشور من تفكير موجود بين حركة الضباط الأحرار فى ذلك الوقت يبدو متلاقيا مع تفكير فاروق نفسه.. ولكن مع الاختلاف فى الأهداف.

يقول المنشور وأنقله بنص عباراته:

من عليه الأمل معقود؟

إنه الجيش.

وهو فى الدرجة الأولىٰ من الاعتبار ذو الأمل المنشود، يضاف إليه عنصر آخر هو عنصر البوليس.

بورك فسادكم أيها الرأسماليون. فقد ساعدتم الخطة على الكمال.

وتنمو العلاقة وتتوثق ربطتها. وتعمل جمعية الضباط الأحرار من شباب الجيش فى إخلاص ودقة.

إن جنود الجيش من أبناء الشعب وهم يفهمون الجندية على أنها حكم قاس من أحكام القدر الظالم.

أخانا عسكرى الجيش يجب أن تفهم أن الجندية هى حكم رهيب لقدر ظالم جبار. هذا هو الف باء العلم والتصقيل.

الجندى يقول له الضابط فى دروس المعسكر: اسمع يا عسكرى أنت وهو، أنا ضابط أبويا ليس باشا. أنا مثلك آكل طعمية وفول مدمس زى مابيكلوا.. أهلى استطاعوا التحمل بالقليل مما لديهم ليجعلونى ضابطًا. ونحن محكومون بطغاة يمتصون ثروات البلد، ويأكل الشعب التراب، والانجليز الكفرة المجرمون يقتلون المصريين فى القنال والشرقية لأنهم لا يريدون الجلاء. إن الضباط الأحرار هم ثمرة التجاوب الثورى وانبثاق الأمل فى الجيش. لقد برق الأمل الكبير. إن الانجليز دكوا مدينة الاسماعيلية وقتلوا وأسروا البوليس. والبلاد تجتاحها موجة سخط شنيع. فعلى هيئة القيادة أن تسرع وتمهد للتغيير. الخطوة الأولى أن يفر جنود من الجيش وينضموا إلى فدائيى الكتائب. وعند ساعة معينة من صباح يوم السبت تبدأ حركة إرهاب تعد من أخطر ماعرفت مصر من تاريخها. ذلك أن يحضر بعض الفدائيين المزودين بأدوات الساعة أى القنابل المحرقة والخناجر والمسدسات، وتقسم هذه الفرق فى أنحاء

القاهرة تخرج معها القوى الشعبية لتحرق أماكن معينة من المدينة مما ينشر الذعر. هنا الثورة فى قلب العاصمة التى تدفع النفوس نحو تنفيذ الخطة المدبرة ويفلت النظام مركزيًا. ستحرق أماكن اللهو ودور القمار والخمر. هذه هى النهاية التى كانت فى حسبان أولى الشأن. ولكننا نرى أنها نهاية لم تبلغ بعد.

فيالخيبة الأمل.. ويالها من خيبة قاتلة جاءت فى لحظة رجاء مشرفة فى ذمة الله.

لقد رسمت الخطط ودبرت المسائل. ولكن راح أمل الحكومة الانقلابية التى دبرناها لتحل محل حكومة الرأسماليين فى سراب الدخان القاتم.

انتهى البيان..

ولابد أن أعلق هنا بملاحظة بالغة الأهمية، وهى أن ثورة يوليو لم تحاول- حتى مجرد المحاولة- التحقيق فى حريق القاهرة، ومحاولة معرفة الفاعل فيها.. لم تحاول الثورة على رغم انها فتحت ملفات كثيرة، إلا أنها لم تقترب من فتح هذا الملف الذى ظل سرًا مغلقا..

انذار بريطانى للشرطة

ثم أعود إلى السؤال: لماذا دبر فاروق حريق القاهرة؟

إن من السذاجة والتجاوزات معا تصور أن فاروق كان وراء سيناريو الأحداث الذى وقع منذ كان العدوان الانجليزى على مبنى محافظة الاسماعيلية وقسم الشرطة هناك وهو الذى جرى يوم الجمعة ٢٥ يناير ٥٢ وأحدث ردود الفعل العنيفة التى أحدثها.

من السذاجة والتجاوز تصور أن فاروق كان له دخل بهذا الحادث الذى بدأ بشكل فجائى عندما حاصرت القوات الانجليزية فى مساء الخميس ٢٤ يناير مبنى محافظة الاسماعيلية وقسم أو ثكنات بلوكات النظام التى كانت توجد خلف مبنى المحافظة. وعلى الطريقة الانجليزية المعروفة فإن قائد القوات الانجليزية واسمه الجنرال اكسهام وكان يتولى قيادة القوات البريطانية بمنطقة الاسماعيلية (حيث كان للانجليز فى ذلك الوقت قوات وثكنات على امتداد طول القناة) .. قام الجنرال اكسهام بتسليم إنذار إلى مسئول قوات الشرطة يطلب فيه أن تقوم قوات الشرطة بالاسماعيلية بتسليم أسلحتها إلى القوات البريطانية وان تخرج هذه القوات بعد أن تسلم سلاحها وتغادر منطقة القناة وأنه فى حالة عدم تنفيذ أوامر القائد البريطانى فإن مدافع الدبابات التى كانت تحاصر مبنى المحافظة فى ذلك الوقت سوف تقوم بهدم المبنى ومقر الشرطة على من فيه.

وكان الهدف الواضح من هذا التصرف الانجليزى هو إهانة السيادة المصرية ممثلة فى شرطتها بعد أن نشطت عمليات الفدائيين التى كان يقوم بها المصريون ضد الانجليز فى منطقة القناة، وكان يشارك فيها بعض الضباط المتخفين. وقد نشطت هذه العمليات بعد أن أعلن مصطفى النحاس باشا فى ٨ أكتوبر إلغاء معاهدة ١٩٣٦ التى كانت تسمح للإنجليز بحصر وجودهم فى منطقة القناة.

ألغى النحاس باشا هذه المعاهدة وكسب رأيا شعبيا واسعا أغاظ بالتأكيد الملك فاروق الذىكان يكره الوفد كراهية بالغة تعود إلى الأيام الأولى من توليه سلطاته كملك فى عام ١٩٣٧. وعلى رغم صغر سنه فى ذلك الوقت فإنه تعلم إقالة الوزارات، وكانت أول وزارة أقالها هى وزارة مصطفى النحاس!

سراج الدين يرفض

على إثر تلقى قائد قوات الشرطة فى الاسماعيلية الإنذار البريطانى أجرى اتصالا مع وزير الداخلية فؤاد سراج الدين الذى كان أمامه أحد خيارين إما أن يقبل استسلام قواته بكل ما يمثله ذلك من خزى، وإما أن يطلب إليها المقاومة وليكن ما يكون.

ورفض سراج الدين الاستسلام..

وللتاريخ، كانت الروح المعنوية لقوات الشرطة التى وجدت نفسها محاصرة بالدبابات عالية جدا.. وذهب قائدها اليوزباشى (النقيب) مصطفى رفعت يبلغ القائد الانجليزى: إذا أردتم استسلامنا فلن تتسلموا منا غير الجثث!

وبكل الوقاحة والغطرسة البريطانية تم تنفيذ الإنذار.. وأطلقت مدافع الدبابات طلقاتها على مبنى المحافظة.. وبالبنادق المتواضعة التى كانت فى أيدى الجنود المصريين ردوا على الرشاشات والمدفعية البريطانية.

كانت معركة قمة فى البسالة من جانب المصريين، وقمة فى النذالة من جانب البريطانيين.. وقد ظل جنود الشرطة يقاومون ببنادقهم أكثر من ساعة ونصف ساعة سقط منهم خلالها ٥٠ شهيداً وجرح ٨٠ ضابطا وجنديا.

وإذا كان تاريخ الأمم لا يكتبه غير الأبطال الذين تهون عليهم أرواحهم فى لحظات الامتحان الرهيبة التى يتعين على الوطن أن يواجهها، فلقد كتب أبطال الشرطة الذين صمدوا واستشهدوا وجرحوا صفحة من أعظم صفحات مصر، الأمر الذى أصبح فيما بعد وبحق عيدا للشرطة يتم الاحتفال به فى ٢٥ يناير من كل عام.

دوره بدأ بعد الاسماعيلية

ولكن فاروق كما قلت لم يكن ولا يمكن أن يكون له أى دور بهذا السيناريو الذى وقع. لقد جرى ماجرى صباح الجمعة ٢٥ يناير.

وعندما عرفت مصر بأنباء ما حدث كانت المشاعر كلها لهيبا متفجرا بالغضب.. وكان جنود بلوك النظام فى العباسية هم فى مقدمة الذين حركتهم مشاعر الغضب تعاطفا مع إخوانهم، وكانت مظاهراتهم التى تطورت إلى مشاهد الحريق المدمر..

وهكذا فإنه إذا كان لفاروق دور فى كل ماحدث فلقد بدأ هذا الدور فى أعقاب حوادث الاسماعيلية التى أراد استثمارها للقضاء على حكم الوفد الذى كانت شعبيته واضحة خصوصا بعد إلغاء النحاس باشا معاهدة ٣٦ فى أكتوبر ٥١ كما قلت.

والسؤال الذى لابد منه هو: لماذا كانت هذه الكراهية الشديدة بين فاروق وبين الوفد تلك التى جعلته يخطط كما تشير ظواهر الأحداث وبواطنها إلى أنه كان نيرون هذه المدينة العظيمة الجميلة التى كانت فى وقتها من أجمل وأنظف مدن العالم؟

إنها ليست قصة فاروق والوفد..

ولكنها قصة فاروق ومصر..

وبصرف النظر عن تطورات الأحداث بعد ٢٣ يوليو ٥٢ وخروج فاروق من مصر فلقد كان فاروق وسيبقى جزءا من تاريخ مصر.

وكم كانت فترة حكمه غريبة.. وكانت مشاعره تجاه الملايين.. وشعوره بأنه لن يعيش طويلا فى مصر.. لقد تتابعت السنوات، وقد حان الوقت الذى يمكن فيه كتابة قصة فاروق وقد كنت شاهدا على كثير من فصولها، بلا عقد ولا حساسيات.

□□□

١ – كل الدلائل تؤكد أن فـاروق هو الذى دبر حريق القاهرة .

٢ – لقطـة نـادرة فـى كبريتـاج حلـوان بصحبة توءم روحـه بوللى وبعض أفراد الحاشية .

٣ – إحدى حفلات شم النسيم بصحبة شقيقته فائزة .

٤ – المائدة الملكية والبساط أحمدى فى الرحلات الترفيهية وقد جلس عن يساره ويمينه الشقيقان محمد وحسين عنان باشا .

٥ – حافظ عفيفى طلب إغلاق ملف حريق القاهرة .